من قصص الحرب الأهلية اللبنانية

عفيف

بقلم علي درويش، كانون الثاني ١٩٩٦

لم يكن قد بلغ الحادية عشرة من عمره عندما اجتاحت الحرب الأهلية المجنونة لبنان وشطرت بيروت شطرين. وكغيره من الأطفال الذين عاشوا في بيروت خلال تلك المحنة، كان عفيف يكبر في وضع غير طبيعي. وكغيره من الأطفال كان يتأرجح بين البراءة والواقع المرير.

وقد شاءت الأقدار أن يولد عفيف في عائلة فقيرة كانت تعيش أيام العذاب والقهر والحرمان على هامش الحياة في بيروت. كان أبوه شبه أمي وأمه تعاني مرض الربو أودى بحياتها وهي في العقد الرابع من عمرها. وكان أعمامه الأربعة صمًا بكمًا. أما عماته الأربع فكانت إحداهن صماء بكماء أيضًا، غير أنهم كلهم كانوا على جانب من الذكاء، لم يحل افتقارهم للنطق والسمع دون العيش حياة طبيعية بمقاييس طبقة الفقراء آنذاك. وكان عفيف الابن البكر له أخت وأخ يصغرانه بسنين قليلة. وكان ذكيًا متوقد الذكاء متفوقاً في المدرسة ومجتهداً في البيت. وكان مهذباً صبوراً على خلاف أخيه خالد الذي كان كأمه يعاني الربو وكان حبيب جدته. ولربما كان سوء سلوكه وافتقاره للتهذيب بسبب حالته الصحية وتدليل جدته له.

كانت جدته وعماته وبعض أعمامه يعملون من المنزل في لصق علب الحلوى التي كان ينتجها أحد معامل السكريات في بيروت. وكانت أجورهم زهيدة. أما أبوه فكان يعمل بائعاً متجولاً. كانت الحياة قاسية تكيل لهم أنواع العذاب. وكانت تصاريف الدهر تجبرهم على التقشف والقناعة بالقليل القليل. ورغم هذا الشقاء فإنهم لم يفقدوا الأمل في الحياة والمستقبل.

وفي فوضى الدمار والانهيار التي دبت في بيروت وعطلت الحياة الطبيعية فيها، نشأت تلقائياً جمعيات وتجمعات اجتماعية غير سياسية أو حزبية في الأحياء كانت تساعد الناس في تأمين الخبز والطحين والكاز وضروريات الحياة الأساسية.

أخذته معي مرة في جولة على المنازل في الحي نقوم بتوزيع "ربطات" الخبز. ومازلنا نصعد من طابق إلى آخر في إحدى البنايات السكنية في الحي حتى وصلنا إلى باب

شقة في الطابق الثالث كانت تسكنه عائلة من عائلات بيروت الأرستقراطية. طرقت الباب مرة أو مرتين وبينما نحن واقفان بانتظار من يفتح الباب لنا إذ بعفيف يلتفت إليَّ فجأة ويقول بلغة فصيحة سليمة تنمُّ عن ذكاء مبكر: "يا لها من دنيا متعبة!"

فالتفت إليه وقلت متعجباً: "ما بالك يا عفيف؟ ما زلت في طفولتك والحياة أمامك. فكيف تقول هذا؟" فابتسم ولم يجب. وتابعنا جولتنا حتى انتهينا من توزيع الخبز على الناس.

وبعد مدة قصيرة، كان القتال في العاصمة قد توقف قليلاً بعد اشتباكات عنيفة وقصف متواصل دام عدة أيام. فخرج الناس من ملاجئهم ليلتقطوا أنفاسهم ويتزودوا بالطعام والمؤونة من جديد. وعادت الحياة إلى طبيعتها برهةً، فخرج أطفال الحي للعب وخرج عفيف قاصداً الدكان في آخر الحي ليشتري قليلاً من السكر لجدته. وصار الحي يصخب بالناس وضجيج الأطفال وضحكهم وصراخهم ونسي الناس الحرب.

وفجأة وبدون إنذار بدأ القصف العشوائي للأحياء السكنية وبدأت القذائف الغادرة تتساقط بالعشرات وتقترب من الحي، فدب الذعر في الناس وراحوا يتسارعون إلى ملجأ أو مكان يحميهم من الكتل النارية المنصبة عليهم ويقيهم من لهبها وشواظها. وهرع الأطفال إلى مداخل البنايات. أما عفيف فكان واقفاً في مدخل الحي وكانت الطفولة قد غلبته فوقف يتفرج على الأطفال الآخرين وهم يلعبون. وعندما سمع صوت القصف استدار وراح يعدو باتجاه منزله وكيس السكر في يده وهمه أن يوصل الكيس إلى جدته. وما أن وصل إليه وكانت جدته العجوز تجلس في شرفة المنزل الأرضي بانتظار عودته - حتى سقطت قذيفة في الحي على بضع خطوات منه فقذفته عدة أمتار. فأسرعتُ وابن الجيران إلى نجدته فوجدناه بين الدخان ورائحة البارود مرمياً على الأرض وجدته المسكينة تجلس أمامه تلطم وجهها وتبكي ويداها مضرجتان بدمه البريء. فوقفنا فوق ذلك الطفل وهو ينتفض من الألم والصدمة في بركة من الدم وعيناه تنظران إلينا وتسيل منهما قطرات من الدم بدل الدموع ونحن لا نستطيع إسعافه. ثم ما لبث أن فارق الحياة وصدى كلماته يرن في أذنيّ:" يا لها من دنيا متعبة!"

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف